الكتاب العربي وأثره في التواصل الثقافي مع إفريقيا: بلاد السودان وساحل إفريقيا الشرقي نموذجا

بروفسور يوسف فضل حسن(*)

المستخلص :

تتناول هذه الورقة الأثر الذي أحدثه الكتاب العربي في الثقافة الإفريقية ، بلاد السودان وساحل إفريقيا الشرقي نموذجاً، وهي تشتمل على انتشار الإسلام في إفريقيا، بلاد السودان وسودان وادي النيل والسودان الشرقي وبلاد الحبشة والصومال. ثم تناولت الورقة إنتاج الكتاب العربي نتيجة للفتوحات العربية حينما بسط الإسلام نفوذه على مناطق شاسعة من العالم، كما أكدت الورقة أن العرب كانوا يعرفون الكتابة حتى قبل ظهور الإسلام. وقد مهدت مراكز العلم التي انتشرت في مدن الخلافة الإسلامية لانتشار الكتاب العربي، مؤسسة لنهضة تعليمية قوامها الكتاب، وكذلك العدد الكبير من العلماء، وازدهار خزانات الكتب ومكتبات القراءة أدت إلى تطور الكتاب العربي. ثم استعرضت دور هذا الكتاب العربي في التواصل مع الشعوب الإفريقية، مع إشارة لبعض معينات ازدهار الكتاب العربي في إفريقيا حينما أصبح الإسلام ظاهرة مألوفة في الفضاء الإفريقي، وأنشأت حكومات إسلامية قامت على الشريعة الإسلامية، وتبع ذلك إنشاء مراكز علمية لتعليم الثقافة العربية الإسلامية . وكذلك ازدهار الكتاب العربي في إفريقيا في مناطق غرب بلاد السودان خاصة نيجيريا، وسودان وادي النيل. وأخيراً استعرضت الورقة الحرف العربي في ساحل إفريقيا الشرقي من خلال الوثائق والمخطوطات المتعلقة بالتراث التاريخي.

(*)جامعة الخرطوم ، معهد الدراسات الإفريقية والآسيوية .yusufadl@yahoo.com.uk

Abstract:

This article discusses the influence of the Arabic book on the interrelation of the African culture with *Bilad al Sudan* and East African Coast. The study covered the spread of Islam in Africa, *Bilad al Sudan, The Nile Basin,* Abyssinia, and Somalia. The paper also highlight to the magnitude of the Arabic book production as result of Arab conquest and the spread of Islam in vast areas of the world. The study showed that the Arabs knew how to write even before the advent of Islam. The spread of centers of Knowledge in Islamic towns paved the way for the development of the Arabic books and the establishment of a scientific renaissance based on books. The great number of scientists, the stocking and publishing of books, the establishment of readers' libraries also contributed to the advancement of the Arabic book.

The paper highlighted the role of this Arabic book in the interrelation with the African nations, with special reference to some factors that led to the flourishing of the Arabic book in Africa, at a time when Islam became a well known phenomena in Africa and followed by the establishment of Islamic states based on Islamic Shariaa, and the spread to scientific centers to teach Arabic and Islamic culture.

تمهيد:

لا نعرف على وجه الدقة إذا كان السومريون هم فعلاً من بدأ الكتابة، وهي الفرضية الأكثر شيوعاً حتى بداية ستينيات القرن الماضي عندما كشفت الحفريات الأثرية عن طينية في المنطقة الواقعة جنوب بلاد الرافدين، وهو اكتشاف عزز فرضية جديدة مؤداها أن الكتابة قد انتقلت إلى السومريين من شعوب أخرى مجاورة في منطقة الشرق الأوسط، ولعلها كانت تستخدم مواد عضوية للكتابة الأمر الذي أدى لاندثارها وعدم عثورنا عليها. وإذا صحّت الفرضية الأخيرة تكون الكتابة، منذ أول معرفة لنا بها ، أداة للتواصل الحضاري والثقافي بين الشعوب، كما أنها في نفس الوقت أداة التعبير الفكري وماعونه، وأن العرب كانوا في منطقة ذات صلة واحتكاك بدائرة اكتشاف الكتابة، فعرفوا فن الكتابة على الأقل منذ بداية القرن الأول الميلادي فيما يعرف بالكتابة النبطية التي اكتشفت في منطقة شرق الأردن وظلت تستخدم قبل ظهور الإسلام للأغراض الإدارية ثم اكتسبت بالإسلام سمة التقديس عندما شرع العرب يدونون بها القرآن الكريم.

كان ظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي نقلة نوعية في حياة العرب، وإيذاناً بميلاد أمة جديدة قدر لها أن تلعب دوراً مهماً ومحورياً في تاريخ منطقة الشرق الأوسط والعالم، فقد أعطى الإسلام العرب الدفعة الروحية، وبفضله تدفقت الحيوية في جُلّ مناحي حياتهم. وبدأ العرب المسلمون سلسلة فتوحاتهم الناجحة خارج الجزيرة العربية، واستطاعوا في خلال بضع عقود فقط من تأسيس دولة مترامية الأطراف ففتحوا سوريا وفلسطين ومصر وشمال إفريقيا وبلاد الفرس، وفي مطلع القرن الثامن فتحوا أسبانيا، ووصلت حدودهم في الشرق إلى سهول آسيا الوسطى والهند.

ورث العرب، ثم طوروا، من تلك البلدان التي فتحوها منجزاتها الحضارية والثقافية والأدبية والفنية، كما ورثوا الأشكال الجاهزة للعمل العلمي والثقافي المنظم مثل المكتبات ومراكز الوثائق والأكاديميات، وازدهرت صناعة الكتاب وتأليفه، بل وأصبح الكتاب أداة جديدة استخدمها العرب للتواصل مع الشعوب الأخرى، وقد تزامن ازدهار الكتاب العربي مع انتشار الإسلام في إفريقيا، وهو موضوع هذه الورقة. والواقع أن الحديث عن دور الكتاب العربي في التواصل الثقافي مع أفريقيا هو موضوع متشعب الجوانب، متعدد المقدمات، ولا يمكن الإحاطة بجُله، لذا أرجو أن أقصر حديثي على أولاً: المكانة السامقة التي وصلها الكتاب عند العرب بعد الإسلام كحامل لثقافتهم العلمية والأدبية. ثانياً الدور الذي لعبه الكتاب في التواصل مع غربي بلاد السودان وشرقيه والساحل الشرقي لأفريقيا، وهو دور نتج عنه انتشار الكتاب العربي في أفريقيا ثم إعادة إنتاجه بواسطة الأفارقة أنفسهم مع الاحتفاظ بسماته وموضوعاته وحرفه. وبطبيعة الحال فهذا لا يعني أن الأفارقة لم يضعوا بصمتهم الخاصة على الإنتاج الجديد، وهو موضوع ستتطرق إليه هذا الورقة بالتفصيل في مكانه. ولما كانت جُلّ هذه القضية، قضية دور الكتاب العربي في التواصل الثقافي مع أفريقيا، لا تنفصل بأي حال من الأحوال عن قضية الأسلمة والتعريب نفسها؛ فقد انتهجت هذه الورقة النظر في العلاقة التبادلية بين انتشار الإسلام، والكتاب العربي في أفريقيا وقد استند كل منهما على الآخر فقد كان الكتاب العربي أداة لنشر الإسلام ونتيجة لانتشار الإسلام في نفس الوقت.

والواقع أن الإسلام قد مثّل الدعامة الأساسية للثقافة العربية إذ أعطاها البعد العقائدي، وشجّع معتنقيه على العلم والتعلم ومعرفة الكتابة. وربما كان هذا التوجيه هو العامل الثاني، بعد التمازج مع الشعوب الجديدة عقب الفتوحات الإسلامية، لازدهار الكتاب العربي. فقد أوحى الله تعالى القرآن الكريم إلى نبيه محمّد باللغة

العربية، وبالحرف العربي كتبت آياته، ووصفه الحق عزّ وجلّ بأنه عربي في تسعة مواضع من المصحف الشريف، منها "وكذلك أوحينا اليك قرآناً عربياً"، و"إنا أنزلناه قرآناً عربياً". ثانياً كانت كلمة اقرأ (والكتابة) أول ما نزل من القرآن الكريم كما تبين الآية. " اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ{١} خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ{٢} اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ{٣} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ{٤}"سورة العلق " ويفسرها الإمام الطبري: عَلَّمَ خلقه الكتاب والخطّ. وذُكِر القلم في سورة القلم " ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ{١}". وفي سورة العلق جاء التنبيه على ابتدأ خلق الإنسان وأن من كرمه تعالى أن علّم الإنسان ما لم يعلم فشّرفه وكرّمه بالعلم "والعلم كما يقول ابن كثير تارة يكون في الأذهان، وتارة يكون في اللسان، وتارة يكون في الكتابة بالبيان". والقسمُ الذي ذكر في سورة ن، قسم من الله تعالى وتنبيه منه لخلقه على ما أنعم به عليهم: من تعليم الكتابة التي تنال بها العلوم. وجاء في الأثر الشريف "قيّدوا العلم بالكتابة". وقد استعملت كلمة "الكتاب" مفردة في مواقع كثيرة من المصحف الشريف للدلالة، في الأغلب، على القرآن، أو كتاب القرآن. مثل: "ذلك الكتاب لا ريب فيه"، وتلك آيات الكتاب وقرآن مبين".

بالمصحف الشريف والقلم (وما صدر عنه) كان القرآن المصدر الأساسي للدين الإسلامي، وكان القلم أداة للاتصال خارج الدولة الإسلامية، خاصة مع البلاد التي لم تعرف القراءة بعد.

العامل الثالث الذي أثّر في انتشار الكتاب العربي وازدهاره، واعتماده كأحد أهم أدوات التواصل الحضاري والثقافي هو حب العرب للكلمة المكتوبة، وهو حب عبروا عنه بحبهم للحرف العربي نفسه؛ فالحرف العربي ليس مجرد نظام علمي للحروف التي تعبر عن الأفكار، بل هو أكثر من ذلك، فله مغزى ديني ورمزي عميق، ويستخدم للرسم وللتزيين وللتعبير عن الأفكار في نفس الوقت، ويتداخل الخط العربي

مع المشاعر الإسلامية ومع الفن الإسلامي إلى أنه أصبح جزءاً لا يتجزأ من الهوية الدينية والقومية.

يتضح من هذا التمهيد كيف تبوأت معرفة القراءة والكتابة، وما صدر منها من كتب، مكانة سامقة في المجتمع العربي الإسلامي، وكيف صار المصحف الشريف نموذجاً يحتذى في نقل المعارف المكتوبة. ولا غرو أن صار هذا الكتاب بما له من قداسة ومرجعية تعبدية وتعليمية موضع عناية قصوى من العلماء. فقد أُلفت الكتب في أحكامه ووضعت التفاسير لشرح معانيه، وصدرت الأسفار اعتناء بلغته وبلاغته، وازدهرت ضروب من المعارف حوله، وحول السنة المحمّدية. وصار كتاب القرآن، وما ازدهرت حوله من معارف وعلوم، أساس النهضة التي واكبت الخلافة الإسلامية. فعبر نشر تعاليم الإسلام صارت اللغة العربية لغة العقيدة الإسلامية ومستودع الفكر العربي الإسلامي ولغة التخاطب بين كثير من شعوبه. وصار نشر الإسلام وتعميق مبادئه عادة ما يصاحبه نشر أنماط مختلفة من الثقافة العربية. وصارت الكلمة المكتوبة والكتاب العربي أداة مهمة في نشر العلوم الإسلامية، وأسلوب تواصل حضاري مهم بين العرب وشعوب آسيا وأفريقيا.

وقد أعطى الكتاب العربي، الذي عمّ الفضاء العربي الأفريقي، بعداً جديداً لحركة التواصل وهو البعد العقدي والثقافي، خاصة وأن عملية الأسلمة لم تعتمد على مؤسسات دعوية أو مساندات رسمية من الدولة. ودون ريب كان الكتاب العربي الرافد الأكبر للثقافة العربية الإسلامية في المؤسسات العلمية في أفريقيا والتي أسهم علماؤها بمؤلفات قيمة في شتى المعارف، وهو ما سنبينه في موضعه. كما اتخذت بعض اللغات الأفريقية الحرف العربي رمزاً لكتابتها وبه أنتجت إنتاجاً علمياً وافراً في علوم الدين والأدب والتاريخ.

انتشار الإسلام في أفريقيا ودوره في التواصل:

دخل الإسلام، منذ ظهوره، القارة الأفريقية عبر ثلاث طرق رئيسة: أولاً، عبر البحر الأحمر إلى بلاد السودان الشرقي (بلاد النوبة والبجة أو سودان وادي النيل) والحبشة وهو أقدمها. وثانياً عبر صحراء سيناء إلى الشمال الأفريقي (مصر وبلاد المغرب، وسودان وادي النيل) وهو أهمها أثراً. وثالثها عبر المحيط الهندي إلى سواحل أفريقيا الشرقية. وقد حمل رسالة الإسلام في البدء العرب، ثم البربر والنوبيون وأمثالهم وأخيراً الأفارقة السود.

بذرت أول صلة رسمية للدين الجديد بأفريقيا في عهد الرسول محمّد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم عندما شجع أصحابه على الهجرة للحبشة هروباً بدينهم لما كثر إيذاء قريش لهم. وقد وجد المهاجرون الحماية والرعاية من ملكها المسيحي، ومن الواضح أن نشر الإسلام لم يكن من أهدافهم في تلك المرحلة. ولما تمت عودتهم بعد أربعة عشر عاماً كان الإسلام قد استتب له الأمر في جزيرة العرب، ونجح في ربط العرب بوثاق ديني وفكري ساعدهم على خلق وحدة داخلية. ومن المدينة المنورة، حاضرة الدولة الجديدة، رُفِعَت راية الإسلام داعية لتعاليمه فخرج العرب صوب الشمال والشرق والغرب وانتصروا على الروم والفرس ثم امتد نفوذهم على الشمال الأفريقي فخضعت لهم مصر وسائر بلاد المغرب (ليبيا وتونس والجزائر والمغرب الأقصى). وبعد موجة الفتوحات العربية التي انتهت عام 750م، توالت هجرة القبائل العربية التي بلغت القمة عند تغربة بني هلال وبني سليم. وانتشر الإسلام على أيدي العرب المسلمين الذين اشتركوا في الفتوحات الإسلامية أو الهجرات العربية. وفي هذه المنطقة اكتملت عملية الأسلمة ومظاهر العروبة. وفي جلَّ تلك الدول ازدهرت مؤسسات العلوم الإسلامية، وتأصلت جذور العقيدة الإسلامية والثقافة العربية وأنماط الحياة القبلية والنظم الأساسية السائدة في جزيرة

العرب حتى صار الشمال الأفريقي تدريجياً جزءاً لا يتجزأ من كيان العالم العربي، وتنطبق الملاحظات السابقة إلى درجة ما على سودان وادي النيل (أي الجزء الشرقي من بلاد السودان) وموريتانيا وإن لم تصيرا جزءاً من أقاليم الخلافة الإسلامية.

يبدو مما مضى أن الدولة الإسلامية قد بسطت نفوذها السياسي والديني والثقافي على الجزء الشمالي من القارة الأفريقية، ليس بقوة السيف وإنما بقوة الشوكة، وهو مصطلح استعمله البروفسور عبد الله علي إبراهيم ليعبر عن حقيقة النفوذ الإسلامي، ومع أن البروفسور لا يقر بسلمية المواجهة بين العرب والأفارقة في كل الأحوال، إلا أنه يوسِّع في نفس الوقت، دائرة القوى (سلطة أو نفوذ) التي استطاع المسلمون بها بسط نفوذهم على أجزاء من أفريقيا لتشمل إضافة للقوى المادية، وفرض الوجود السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وفرض الحصار والعزلة وغير ذلك.

وقد أسهم علماء منطقة الشمال الأفريقي بدور مؤثر في إرساء مادة التواصل الحضاري بما ألفوا من كتب في مجال العلوم الإسلامية كالفقه (خاصة مذهب الإمام مالك) والتوحيد، واللغة العربية وآدابها والتاريخ وأدب الرحلات.

دخول الإسلام في بلاد السودان:

من مصر وبلاد المغرب توغلت تعاليم الإسلام وما صاحبها من مؤثرات ثقافية في بلاد السودان (أو أفريقيا شبه الصحراوية) وهو توغل مماثل لتوغلها في جزيرة العرب مهد العقيدة وقلب إشعاعها المنير.

بدأ الإسلام يتوغل تدريجياً على يد التجار والعلماء من العرب، وكان النهج السلمي الغالب على نشاط الدعاة المسلمين في المرحلة الأولى. وكانت أدوات سعيهم هي المصحف الشريف والقلم بين من عرفوا الكتابة. تزامنت المرحلة الثانية، ويغلب عليها الجهاد والتمكين السياسي، مع جهاد المرابطين ومن تبعهم من قبائل البربر. أما المرحلة الثالثة فقد ارتبطت بانتقال الزعامة الدينية والثقافية والسياسية

والاقتصادية إلى سكان البلاد الأصليين من السودان. وفي هذه المرحلة نشأت عدد من السلطنات الإسلامية مثل كانم، وبرنو وإمارات الهوسا ومالي وسنغاي، كما ازدهرت عدد من المدن التجارية على أطراف الصحراء ، وكانت تلك المدن تجمع بين ديناميكية طبقتي التجار والعلماء، وأدى نشاطهما الواسع إلى ازدهار الحراك الاقتصادي والثقافي مثل ما حدث في جنّي، نياني، وولات في غرب بلاد السودان، وقد غلب على دولة كانم وبرنو، ومدن الهوسا مثل كاتسينا وكانو حراك اقتصادي ثقافي مماثل، وصار بعضها مراكز إشعاع للعلوم الدينية وعلوم اللغة العربية ومثيلاتها من العلوم.

واكب هذا الازدهار الاقتصادي والانفتاح على العالم الخارجي والمناطق الاستوائية، عن طريق تجارة القوافل بعيدة المدى، نهضة علمية تتمثل في هجرة العلماء إليها وإقبال الطلاب عليها. وكانت الكتب المستوردة من مصر وبلاد المغرب والحرمين الشريفين من أكثر المواد رواجاً في أسواقها. كان هذا التعامل السلعي الواسع وهجرات العلماء والطلاب من أهم مظاهر التواصل الثقافي. في مثل هذا المناخ وعند تكامل المعطيات آنفة الذكر ظهر عدد من العلماء والكتاب ممن تمثلوا المعارف العربية الإسلامية على نسق موسوعي وأنتجوا ما يماثل ما كان في بلاد المشرق الإسلامي جودة وأصالة.

توغّل الإسلام في سودان وادي النيل السودان الشرقي:

بدأ تسرب النفوذ الإسلامي بعد توقيع معاهدة عدم اعتداء (عرفت بمعاهدة البقط) بين المسلمين ومملكة النوبة المسيحية في عام 1-652 م؛[1] ونظم ذلك العهد العلاقات الاقتصادية وفي كنفه مارس التجار المسلمون نشر الإسلام وتبعهم العلماء والمتصوفة. وكان لدخول المهاجرين العرب في أعداد كبيرة بدءاً من القرن الثالث

[1]. استعملت التقويم الميلادي إلا في حالة نادرة استعملت فيها التاريخ الهجري وقد تبعت على ذلك.

عشر أثر كبير في نشر الإسلام وغلبة الثقافة العربية. وفي سلطنه الفونج الإسلامية، التي أسسها عمارة دنقس في مطلع القرن السادس عشر، تمازج الشعبان العربي والسوداني الأفريقي وتكاملا ثقافياً في بوتقة الحضارة الإسلامية، مقدمين نموذجاً جديداً للتلاحم بين شعوب مختلفة في إطار الدين الإسلامي. وكانت سلطنة الفونج على صلة وثيقة بمعاهد العلم في القاهرة والحرمين الشريفين؛ وهو ما ينطبق بنفس الدرجة على سلطنة الفور الإسلامية التي تأسست (١٦٤٠-١٨٧٤ ... ١٩٨٨-١٨١٦) في الجزء الغربي من سودان وادي النيل. وكانت رحلات العلماء المتجولين وشيوخ الصوفية ورصفائهم من سودان وادي النيل وبلاد السودان الأوسط مصدر تفاعل ثر. وكان للمذهب المالكي والطريقة القادرية (ثم التجانية) نفوذ كبير بين سائر مسلمي المنطقة، ويتضح ذلك جلياً فيما يتناولون قراءته من كتب وما أنتجه العلماء من مؤلفات.

انتشار الإسلام في بلاد الحبشة والصومال:

رغم المعاملة الحسنة التي وجدها الصحابة الفارون بدينهم عند ظهور الإسلام فإن الإسلام لم يضرب بجذور عميقة في تلك البلاد حتى القرن العاشر الميلادي، وظل حبيس الساحل، في المدن التجارية مثل ميناء مصّوع (في أرخبيل دهلك) وزيلع، التي كانت أولى المدن الحبشية تأثراً بالإسلام وبالثقافة العربية، وعبر الطرق التجارية المتفرعة من مصّوع وزيلع إلى الداخل تمكن التجار من نشر العقيدة الإسلامية، في بلد كان كثير من مواطنيه يدينون بالمسيحية ويكتبون تعاليمها بلغة الجعز. وفي السهول الساحلية أدى انتشار الإسلام إلى نشأة عدد من الإمارات العربية الإسلامية عرفت بالطراز الإسلامي، ومن أشهرها أوفات وهرر، التي بقيت معلماً مهماً للثقافة الإسلامية؛ وتمكنت أوفات بقيادة بني ولشع، وهم خليط من بني مخزوم والحبش، من تكوين حلف إسلامي عظيم ضم معظم إمارات الطراز

الإسلامي العشرة. وبسط الحلف نفوذه على جزء كبير من جنوب شرقي الحبشة وشمال الصومال. وكانت سيطرته على موارد الإقليم وتجارته الخارجية شبه كاملة. وكان أغلب مسلمي الحبشة على مذهب الإمام الشافعي. وكانوا يترددون على معاهد العلم في اليمن والحجاز ومصر، وكانت لهم أروقة خاصة بهم في الجامع الأزهر، أشهرها رواق الجبرتية، أو الجبرت وهو الاسم الذي عرف به المسلمون الأحباش.

أثار التوسع الإسلامي بقيادة أوفات، حفيظة ملوك الحبشة المسيحيين بقيادة الأسرة السليمانية التي نجحت في استرداد نفوذها، خاصة بعد أن طرحت أوفات تبعيتها الاسمية لملك الحبشة. ومن القرن الرابع عشر الميلادي وجدت الإمارات الإسلامية نفسها في حروب متصلة مع ملك الحبشة انتهت بتقلص الحلف الإسلامي. وظل النجاشي ملك الحبشة، يدير دفة البلاد دون منازع حتى ظهور الإمام أحمد بن إبراهيم القِرَان (1527–1542)، أحد أمراء هرر، الذي ربما كان ظهوره نتيجة لنمو الدعوة الإسلامية وكثرة عدد الفقهاء الذين كانوا ينفثون روح الجهاد. وفي سلسلة من الضربات السريعة، دوّخ الإمام أحمد القِرَان سلطة المملكة المسيحية واستعاد إمارات الطراز وبذلك نجح المسلمون في السيطرة على جنوب الحبشة ووسطها. ويذكر المؤرخ الحبشي عرب فقيه، الذي أفرد سفراً كاملاً لتاريخ هذا الجهاد، أن معظم سكان الهضبة الحبشية اعتنقوا الإسلام رغبة أو رهبة. ولكن انتصارات الإمام أحمد أصيبت بنكسة بعد مقتله ولم يبق للإسلام أثر دائم إلا في هرر والمناطق الساحلية وبين العفار. ورغم تعصب ملوك الحبشة، وإقصائهم المسلمين عن المناصب القيادية في الدولة فقد ظلّ الإسلام يكسب أتباعاً بفضل جهود التجار والعلماء والمتصوفة، خاصة بين قبائل القالا وبين التقري والحباب في منطقة ارتريا.

تختلف عملية نشر الإسلام في بلاد الحبشة عن الأسلوب الذي تحققت به في بلاد السودان، إذ لم تواجه هناك بمعارضة تدعمها دولة ذات كيان مركزي قوي ودين توحيدي كتبت تعاليمه بلغة عريقة. فقد ظلت كل فئة تكافح من أجل المحافظة على تراثها وبث معتقداتها. وحقيقة الأمر أن الحروب الطويلة التي غلبت على عملية التواصل بين الشعبين العربي والحبشي، وبين الإسلام والمسيحية لم تتح لهما فرصة التفاعل والتلاقح. ورغم ذلك فقد نجح الإسلام بفضل جهود التجار والفقهاء ورجال الطرق الصوفية من جذب أتباع كثر من الوطنيين، وعلى هذه الفئة وقع عبء نشر العقيدة الإسلامية والدفاع عنها أمام الضغوط الصليبية. وكان لصلة الحبشة الوثيقة باليمن والحجاز ومصر أثر مهم في إثراء التراث الثقافي سواء كان ذلك على النهج الإسلامي أو المسيحي. كان أقباط مصر والأحباش يدينون بمذهب مسيحي واحد.

وإلى الجنوب من الحبشة أعتنق الصوماليون الإسلام وبعض مظاهر الثقافة العربية، كالنسب عن بكرة أبيهم، وجاء انتشار الإسلام على المنطقة الساحلية نتيجة هجرات عربية آثرت الاستقرار في هذه المنطقة، وعلى يد التجار توغلت المؤثرات الإسلامية إلى المناطق الداخلية.

انتشار الإسلام في شرقي أفريقيا:

في الوقت الذي توغلت فيه الجيوش العربية في أفريقيا الشمالية طرقت جماعات أخرى من العرب الساحل الأفريقي وبازدياد نفوذ الإسلام ازداد عدد الوافدين ليس للتجارة فحسب بل للإقامة الدائمة، واستمرت هذه الهجرات على ضآلتها قروناً. وكان ممن وفدوا جماعة من الشيعة الزيدية من اليمن وآخرين من الإحساء من أهل السنة في القرن العاشر. ثم أبحرت مجموعات أخرى من العرب والفرس من شيراز، وفي عهد الشيرازيين ازدهرت مدينة كلوة التي توطدت صلتها بزنجبار. وفي القرن التاسع عشر تجددت الهجرات العربية من العمانيين الذين كانوا ينتمون إلى المذهب

الأباضي، ومن الحضارمة الذين كانوا يدينون بالمذهب الشافعي، وتزاوجت هذه الفئات مع المجموعات الزنجية (الناطقة بلغة البانتو). تَمثل الهجين الدين الإسلامي وبعض مظاهر الثقافة العربية. ونتج عن هذا التلاقح العرقي والتفاعل الثقافي بين العرب والفرس والزنج في كنف العقيدة الإسلامية ازدهرت الثقافة السواحيلية ولغتها السواحيلية التي انتشرت على ساحل أفريقيا الشرقي (وجزرها) بين الصومال وموزمبيق. فالسواحيلي هجين عربي أفريقي، أما اللغة السواحيلية فقد احتفظت ببنيتها البانتوية، ولكنها استوعبت كثيراً من الكلمات المستعارة من لغات أجنبية كالعربية والفارسية.

وتقدر الكلمات العربية بـ 20% في لغة التخاطب ونحو 30% في السواحيلية المكتوبة و50% في الشعر السواحيلي القديم. وقد كتبت السواحيلية أصلاً بالحرف العربي مثل كثير من اللغات الأفريقية ذات المنبت المماثل. ومن الساحل تمددت الثقافة السواحيلية عبر الطرق التجارية إلى أواسط القارة الأفريقية.

إنتاج الكتاب العربي وانتشاره:

ما أن انتهت مرحلة الفتوحات العربية السريعة والتي امتدت قرناً من الزمان حتى كان العرب قد بسطوا نفوذهم على الجزء الأكبر من العالم المتحضر ونشروا الإسلام، وشمل ذلك فوق شمالي أفريقيا وشرقي آسيا حتى منطقة ما وراء النهر. وقد كانت الريادة في المجتمع والإدارة في الحكم شبه كاملة للعرب في عهد الراشدين وبني أمية في هذه المرحلة. وبعدها تلاقت الشعوب العربية مع أعراق جديدة من الشام وفارس ومصر وشمالي أفريقيا فخالطوهم وصاهروهم؛ ونتج عن ذلك تحولات ثقافية وسياسية منها إسهام غير العرب في إدارة الدولة. ومع انتشار الإسلام واتساع دائرة اللغة العربية بين الشعوب غير العربية اتسعت دائرة العروبة القائمة على اللغة، وصارت العروبة هي عروبة اللسان، وتضاءل تدريجياً دور النسب والانتماء القبلي.

وكان الإرث المعرفي الذي ورثه العرب عن حضارات الفرس والفراعنة وعلوم السريان واليونان والهنود عظيماً لمن تعرض من العرب في العراق والشام. ونتيجة الانصهار البشري والتأقلم الاجتماعي والتفاعل الثقافي والحضاري اتسع أفق المعرفة وتفتحت أبوابه وتفاعلت مكوناته مع العقيدة الإسلامية والثقافية العربية.

لدينا دلائل في القرآن الكريم نفسه تشير إلى أن العرب كانوا يعرفون الكتابة ويستخدمون الرق وغيره من مواد الكتابة قبل ظهور الإسلام لتدوين النصوص التجارية والإدارية، إلا أنه، فيما يبدو، كان استخداماً محدوداً، ولم تكن الكتابة أمراً شائعاً على الأقل في تدوين الإنجازات العلمية، إن وجدت، والأبيات الشعرية التي كانت تنتقل من فرد إلى آخر ومن جيل لجيل بالمشافهة. وفي منتصف القرن الثامن استطاع العرب أن يتوصلوا إلى طريقة صناعة الورق واحتكروا إنتاجه نحو خمسمائة عام، وبفضلهم انتقلت المعرفة بالورق وصناعته من العزلة الصينية إلى العالم. ففي القرن الثالث عشر، وعبر العرب، عرفت أوربا والعالم صناعة الورق التي تعتبر بحق "ثورة الكتاب". ومع إنتاج الورق بدأت المرحلة الذهبية للكتاب العربي.

شهدت البلاد العربية نهضة علمية عظيمة بدأت نواتها في العهد الأموي وبلغت ذروتها في بغداد حاضرة الخلافة العباسية. وفي الحرمين مكة المكرمة والمدينة المنورة بدأ الاهتمام بجمع القرآن وتدوين قراءاته وجمع الحديث الشريف والسنة المطهرة، كما عنيت المدينتان بالأدب والشعر. ووقع على مدينتي البصرة والكوفة العراقيتين عملية تطوير الدراسات اللغوية والعلوم الدينية. ففي البصرة بدأ أبو الأسود الدؤلي (ت. 688) تأسيس قواعد العربية وتبعه العالم البصري الخليل بن أحمد (ت. 786) بتأليف **كتاب العين** أول قاموس عربي، واليه ينسب وضع قواعد علم العروض؛ وإلى تلميذه سيبويه (ت. 793) يعزى وضع أول نظام متكامل للنحو العربي.

وكانت دراسة القرآن وضرورة تفسير معانيه سبباً في نشأة علمي فقه اللغة المقارن وصناعة تأليف المعاجم بالإضافة إلى علم الحديث (أقوال الرسول وسننه). وغني عن القول أن القرآن الكريم والحديث الشريف يكونان أساس علم التوحيد والفقه. ومن أشهر علماء الحديث والفقه حسن البصري (ت. 728) وإليه يرجع البعض أساس الزهد والتصوف ويعتبره المعتزلة أحد علمائهم. ولا تقل مساهمة مدينة الكوفة، التي غلب عليها حب الإمام علي وشيعته، عن البصرة في تطوير علوم اللغة العربية والعلوم الإسلامية. وقد أدت حدة التنافس بين علمائهما إلى قيام مدرستين من علم النحو والأدب العربيين. ومن أشهر علماء الكوفة الصحابي الجليل وراوي الحديث عبد الله بن مسعود (ت. 653) ومثله من علماء الحديث الثقاة شراحبيل الشعبي (ت. 728) وكان من تلاميذه الإمام الأعظم أبو حنيفة، مؤسس أحد مذاهب الفقه الأربعة.

كان مفهوم التاريخ في الجاهلية لا يتجاوز الأخبار (أو أيام العرب) وأنساب القبائل، وفي العهد الأموي كان التاريخ بمثابة العلم التكميلي في دراسة العلوم الدينية، وكانت بداية تدوينه لصيقة بعلم التاريخ في منهجه وطريقة روايته، وعبر منهجية جمع الحديث اهتم العلماء بصحة الأخبار وحكموا قواعد الجرح والتعديل واعتنوا بنقد السند والرجال وأسبغوا على علم التاريخ جدية ومنهجية. وكان علم التاريخ من أول العلوم التي اهتم المسلمون بتطويرها فكتبوا السيرة وأرخوا للمغازي وجمعوا الأنساب، وسجل الرواة القصص مثل عبيد بن شرية الذي أعد **كتاب الملوك وأخبار الماضيين** للخليفة معاوية بن أبي سفيان وكتب وهب بن منبه، وكان متبحراً في أخبار الماضيين، **التيجان في أخبار ملوك اليمن**.

وشهد الحكم الأموي طلائع الحركات الدينية الفلسفية والمدارس الفلسفية ممثلة في كتابات واصل بن عطاء (ت. 748)، تلميذ الحسن البصري، وهي مدرسة

المعتزلة ثم مدرسة القدرية، ولعلها أولى المدارس الفلسفية العقلانية في الحقبة الإسلامية. ومن أولى الحركات الدينية– السياسية حركة الخوارج والمرجئة والشيعة. هذه أمثلة لبعض القضايا الفكرية التي شكّلت المناخ الفكري والعلمي في العهد الأموي وتأثر ذلك المناخ بما هب من تيارات فكرية وعلمية في الفلسفة والرياضيات، والطب والأدب من بيزنطية وفارس والهند.

عند قيام الدولة العباسية كانت تعاليم الإسلام قد انتشرت وتعمقت بين كثير من شعوب الخلافة العباسية (750–1258)، كما شاعت اللغة العربية كلغة عبادة وتخاطب بين سائر المسلمين وبلغ نجاحها مدى بعيداً وحققت نصراً حضارياً كبيراً باستيعاب معطيات علوم وأفكار الشعوب التي غلب الإسلام على بلادها، فعلت ذلك بدافع التواصل الحضاري. واتضح ذلك جلياً عندما وجه الخلفاء العباسيون بترجمة علوم اليونان والفرس والهند. وكان عصر الترجمة (750–850) حافلاً بترجمة الكتب العلمية في الفلسفة والطب والرياضيات والفلك والجغرافيا. وتبع ذلك العصر نشاط علمي خلاق في كافة العلوم المترجم منها والعلوم الإسلامية والعربية. فقد جمع بعض المترجمين بين الترجمة الرصينة، والمساهمة بإنتاج علمي أصيل ينحى إلى التوفيق بين العلوم الإسلامية والأفكار المترجمة. ولإكمال صورة الجو العلمي الخلاق الذي غلب على الخلافة العباسية سأكتفي بذكر أسماء بعض الذين أثروا الساحة بإنتاجهم العلمي الغزير وفكرهم المنير حتى صاروا قبلة للطلاب ومحجة للدارسين.

فمن أوائل المترجمين يوحنا بن ماسويه (777– 857) وحنين بن إسحاق (809– 873) مؤلف **العشر مقالات في العين** ولعلها أقدم رسالة في طب العيون. وكان ما ترجم من اليونانية كبيراً ومتنوعاً .ومنذ عهد الكندي، العربي الأصل، بدأت عملية التوفيق بين الفلسفة اليونانية والفكر الإسلامي وامتد إلى أيام الفارابي التركي

واكتملت عند ابن سينا الفارسي. وإكمالاً لصورة النهضة الحضارية يكفي أن نذكر نبذة موجزة عن عطاء كلّ منهم: أولهم أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي (ولد في منتصف القرن التاسع الميلادي في الكوفة) وازدهر نشاطه العلمي في بغداد. تأثر بالأفلاطونية الحديثة وكان انتقائياً في كتابته، وهو مثل كثير من علماء عصره شمولي المعرفة، إذ عُرِف فيلسوفاً، فلكياً، كيمائياً، عالم بصريات، ومنظّراً موسيقيّاً. وكان عطاؤه الأعظم في مجال البصريات وقد نسب له نحو مائتين وخمسة وستين عملاً، ضاع جُلّها وحفظ بعضها في تراجم لاتينية. ثانيهم محمّد بن طرخان الفارابي (ت. 950 في دمشق) كتب عدداً من الرسائل عن فلسفة أفلاطون وأرسطو وعن التصوف، وله كتب في الميتافيزيا، وعلم النفس والسياسة ومن أشهر أعماله **رسالة فصوص الحكم، ورسالة في آراء أهل المدينة_الفاضلة. والسياسية (سياسات) المدينة**، وله مؤلفات في الطب والرياضيات، وفي السحر والتنجيم، ويعد من أعظم المنظرين في الموسيقى. وثالثهم أبو علي الحسين بن إسماعيل بن سينا (980– 1037) ولقب بالشيخ الرئيس، وقد جمع بين الفلسفة وعلم اللغة والشعر والطب– بل تبوأ مثل الرازي مكانة رفيعة في سجل الأطباء المسلمين. وروى القفطي أسماء عناوين واحد وعشرين عملاً كبيراً وأربعة وعشرين كتاباً صغيراً من إنتاجه. وذكر آخرون أن مؤلفاته بلغت تسعة وتسعين. ومن مؤلفاته العلمية الشهيرة. **كتاب الشفاء.** وهو عبارة عن موسوعة فلسفية، تقوم على الفلسفة اليونانية وعلم التوحيد عند المسلمين وله **القانون** في الطب، الذي يمثل توثيقاً خاصاً للفكر الطبي اليوناني– العربي. وقد ترجم هذا الكتاب للاتينية في القرن الثاني عشر الميلادي ونشر في عام 1593. ومن رواد العلوم الطبية، علي الطبري مؤلف **كتاب الدين ، وفردوس الحكمة.** أقدم خلاصات عن الطب العربي. واشتهر من بعده أبو بكر محمّد بن زكريا الرازي (865– 925) ولعله أعظم علماء الطب المسلمين وأكثرهم أصالة

وأوفرهم إنتاجاً. ومنهم على بن العباس المجوسي (ت. 944) واشتهر بمؤلفه **كتاب الملكي** الذي عرف أيضا بـ **كامل الصناعة الطبية.**

ومن أشهر علماء الفلك والرياضيات الذين ذاع صيتهم في الدولة العباسية، وقد تأثروا كثيراً بالتراث اليوناني والهندي ممثلاً في كتاب سندهند (أو سدهانت Sidahanta) الذي ترجمه إلى العربية محمّد بن إبراهيم الفزاري (ت. 777) وفي صحبة ذلك الكتاب أدخل عالم هندي الأرقام الهندية ومنها الصفر، في الكتابة؛ وبين عامي 877 و918 قدّم أبو عبد الله محمّد بن جابر البتّاني ملاحظات فلكية قيمة، كما اشتهر بإجراء بحوث أصيلة ولعله أعظم علماء الفلك في عصره. ومن أشهر العلماء الذين أنجبتهم الحضارة الإسلامية وأكثرهم عمقاً وأصالة في مجال العلوم الطبيعية أبو الريحان محمّد بن أحمد البيروني (935- 1048). كان البيروني ذو الأصل الفارسي يجيد العربية، ويتحدث التركية ويعرف الفارسية والسنسكريتيه، والعبرانية والسريانية، ألّف في عام 1030 كتاباً في علم الفلك بعنوان **قانون المسعودي في الهيئة والنجوم** ، وأصدر في نفس العام **التفهيم لأوائل صناعة التنجيم.** وله أيضاً كتاب **الآثار الباقية عن القرون الخالية.** وفي هذه الأعمال يناقش البيروني بذكاء نظرية دوران الأرض على محور، وعيّن بدقة مواقع خطوط الطول والعرض، ومن أشهر علماء الرياضيات وذي العقلية الخلاقة ولعله من أكثرهم تأثيراً في تطور علم الرياضيات، محمّد بن موسى الخوارزمي (780- 850) وكانت مساهمته الرئيسة **حساب الجبر والمقالة،** وقد ترجم الكتاب إلى اللغة اللاتينية في القرن الثاني عشر الميلادي إلا أن نصّه العربي ما زال مفقوداً.

هذه نماذج بسيطة من العدد الكبير من العلماء الذين أثروا ساحة المعارف العربية الإسلامية في مجال الفلسفة والعلوم الطبيعية، وإن ما أنجزوه أكبر من أن تحيطه ورقة بهذا الحجم. ومع جليل قدر الكتب التي أشرنا إلى طرف منها فإن أثرها

كان قليلاً في عملية نقل العلوم الطبيعية إلى أفريقيا مقارنة مع الأجزاء التي حددنا معالمها في هذه الورقة. بيد أن دور الكتاب العربي الإسلامي كان أعظم في مجال العلوم الأدبية أو الإنسانية خاصة.

الكتاب العربي ذو الأثر الواضح في التواصل مع الشعوب الأفريقية:

شهد العهد العباسي اهتماماً كبيراً بعلوم الشريعة الإسلامية واللغة والتاريخ، ويتمثل ذلك في الكم الكبير الذي صدر من الكتب والنهضة العلمية التي واكبته. وفي مقدمة هذه العلوم التوحيد، الحديث، الفقه، فقه اللغة. كان الوازع الديني وراء هذا الاهتمام المبكر بهذا النمط من العلوم التي تعين على فهم القرآن الكريم وشرح معانيه، خاصة وقد صار ذلك الفهم أساس علم التوحيد واللغة. وكان الاهتمام الثاني بالحديث الشريف وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم؛ وكان للمصدرين أثر كبير على تطور الفكر الإسلامي. وشهد القرن الثالث الهجري ظهور ستة تصانيف من كل ما جمع من الحديث، وعرفت مجاميع التصانيف هذه بكتب **الصحاح**: أولها وأكثرها اعتماداً الصحيح (أو **جامع الصحاح**) لمحمّد بن إسماعيل البخاري (810–870). وخلال ستة عشر عاماً من العمل الدءوب زار فيها البخاري فارس والعراق، والحجاز، وسوريا، ومصر واستمع فيها إلى ألف شيخ من رواة الحديث، وبعد تمحيص وتدقيق اختار مما جمعه 7275 حديثاً ثبتت صحتها حسب معايير دقيقة. وتبوأ **صحيح البخاري** مكانة رفيعة ودرجة من القداسة عند عامة المسلمين، ويأتي صحيح مسلم (ت. 875) في المرتبة الثانية بعد صحيح البخاري ويكاد أن يكون مطابقاً له في محتواه وربما ظهر بعض الاختلاف في السند. أما الصحاح الأخرى فهي **السنن** لأبي داود (ت. 888) **والجامع** للترمذي (ت. 892) **وسنن ابن ماجة** (ت. 886) **وسنن النسائي** (ت. 915).

وفي كتب الفقه صنفت علوم الشريعة، والعبادات، والمعاملات، والعقوبات. وتمركزت أصول الفقه في مذاهب أشهرها أربعة أولها مذهب أبي حنيفة، ومؤسسه النعمان بن ثابت أبو حنيفة (ت. 767)، ثم المذهب المالكي وينسب إلى مالك بن أنس (715– 795) وقد أسس على **كتاب الموطأ**؛ وهو من أكثر الكتب انتشاراً في بلاد المغرب والأندلس وبلاد السودان. وينسب مذهب الشافعية لمحمّد بن إدريس الشافعي (767– 820)، وينتسب رابع المذاهب، الحنبلى، لأحمد بن حنبل (ت. 855) وهو الذي شهد محنة خلق القرآن وإليه ينسب مسند بن حنبل. وتعتمد المذاهب الأربعة على مرجعية سنية، وكان ممن أشتهر من الشيعة في ذلك الزمان الباكر علي زين العابدين بن علي (ت. 734) الذي نشر أتباعه تعاليمه على ساحل أفريقيا الشرقي.

سلفت الإشارة إلى بداية علم التاريخ في العهد الأموي، وفي العهد العباسي أخذ علم التاريخ شكلاً منهجياً، وكثر ما كتب فيه ومن أول هذه الكتب **سيرة رسول الله** صلى الله عليه وسلم لمحمّد بن إسحاق (ت. 767) وهو ثبت في الحديث عند أكثر العلماء. وقد وصلتنا هذه السيرة في تلخيص عبد الملك بن هشام (ت. 834)، وقد اشتهرت باسمه. ثم ترد كتب عن غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم مثل **كتاب المغازي** لموسى بن عقبة (ت. 758) وآخر بنفس العنوان للواقدي (ت. 2– 823)، ولكاتبه محمّد بن سعد (784– 845)، وكان ممن اهتموا بجمع الحديث. وترجع شهرة ابن سعد إلى تصنيفه **كتاب الطبقات الكبير**، المتضمن لتراجم 4250 شخص من الصحابة والتابعين، قصد منها إعانة علماء الحديث في التعرف على الرواة. ومن أشهر كتب الفتوحات **فتوح مصر وأخبارها** لعبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم (ت. 871)، والكتاب من أقدم ما وصلنا عن غزو مصر وشمالي أفريقيا والأندلس؛ ومنها **كتاب فتوح البلدان** لأحمد بن يحيى البلاذري (ت. 892)؛ وله

أيضاً كتاب **أنساب الأشراف**، وهو كتاب كبير يبدأ بنسب النبي محمّد عليه السلام، ووجهاء قريش وينتهي بنسب الحجاج بن يوسف.

ومنهم المؤرخ الكبير وإمام المفسرين وشيخهم محمّد بن جرير الطبري (838-923) الذي تستند شهرته على كتابه الفخيم **تاريخ الرسل والملوك**، المكون من خمسة عشر جزءاً وعلى تفسيره الضخم الموسوم **جامع البيان في تفسير القرآن** المكون من ثلاثين جزءاً. وقد صار الكتابان نموذجين اقتدي بهما، واعتمد كثير من المؤرخين والمفسرين على مادتهما. فقد اقتدى بهذا الصرح التاريخي العالم ابن مسكويه وابن الأثير وأبو الفداء والذهبي. واعتمد الطبري في كتابة التاريخ على نسق الحوليات والإسناد، واعتمد في إعداده على مصادر خطية عربية، وعلى بعض التراجم، وعلى ما جمعه من معلومات أثناء ترحاله في طلب العلم، وكانت وجهته فارس والعراق وسوريا ومصر.

استهل المؤرخ الشهير والكاتب القدير أبو الحسن علي المسعودي (893-956) نهجاً جديداً في كتابة التاريخ يقوم على الموضوع بدلاً عن نهج الحوليات الذي يأتي عاماً بعد عام ويدور في فلك الملوك والأحداث، وهو النهج الذي سار عليه العلامة ابن خلدون. وقد تحول المسعودي كثيراً طلباً للعلم والمعرفة فقد زار بلاداً كثيرة في آسيا وأفريقيا، وكانت جملة مؤلفاته نحو ستة وثلاثين عملاً. لم يبق منها (على الأرجح) إلا اثنان **التنبيه والإشراف**، **ومروج الذهب ومعادن الجوهر**، وهو الكتاب الذي نال به المسعودي شهرته. والكتاب ذو نهج موسوعي ونسق تاريخي- جغرافي. وتتكون مادة الكتاب مما جمعه المسعودي من أخبار شفوية في رحلاته الطوال. وذكر أنه قرأ لإعداد هذا الكتاب نحو مائة وستة وخمسين مصدراً مكتوباً، وبعضاً مما ترجم من الأدب البهلوي والتراث اليوناني وبعض المصادر المسيحية.

هذه أمثلة قليلة من أسماء العلماء الذين أثروا الحضارة الإسلامية ومن عناوين الكتب والمعاجم والرسائل التي نشرت في مجال العلوم الإنسانية والتي كان لها أثر عظيم على المجتمعات الأفريقية.

بعض معينات ازدهار صناعة الكتاب العربي:

مهّد لهذا الإنتاج العلمي الهائل الرفيع، معاهد العلم التي انتشرت في مدن الخلافة، مؤسسة لنهضة تعليمية قوامها الكتاب. كان هدف التعليم في مراحله الأولى معرفة العقيدة الإسلامية وإتباع مراميها، وكان مدخل الدراسة الرئيسي هو القرآن الكريم ويتلو ذلك تعلم القراءة والكتابة. وفي البدء يحفظ الطفل آيات القرآن عن ظهر قلب، وكان نهج العناية بالحفظ والاستظهار جزءاً مهماً من العملية التعليمية عند المسلمين كافة، ولكنها لم تكن غاية بل وسيلة لتحقيق هدف تربوي وديني. كان هذا النهج التعليمي سائداً في عموم أنحاء الخلافة وفي دار الإسلام. فالمؤسسات التعليمية من كتاب، ومكتب وما يعادلها من مرادفات مثل خلوة، زاوية أو مدرسة تكاد أن تكون واحدة الهدف والنهج من برامج الدراسة في المرحلة الأولية. وكان تأسيس كتاب أو مكتب جهداً طوعياً، استجابة لحاجة المجتمع لمعرفة علوم الدين وإيثاراً للتواب واقتداءً بقول الرسول صلى الله عليه وسلم "خيركم من تعلم القرآن وعلمه". وبعد مرحلة الكتاب وحفظ القرآن أو جزء منه يدرس الطالب العلوم النقلية وهي الفقه والتوحيد وعلوم القرآن وعلوم اللغة العربية. وتدرس هذه المواد في مدرسة متخصصة في تدريس هذه العلوم أو على شيخ متخصص في تدريسها أو عدة شيوخ. وفي هذه المرحلة يختار الطلاب أساتذتهم فالشيخ هو مصدر الجذب على الأرجح وليس الكتاب أو الخلوة أو المسجد.

ولعل أول معهد مشهور لمرحلة ثالثة أو "تعليم عال" هو "بيت الحكمة" الذي أسسه الخليفة المأمون عام 830 في بغداد، وفوق الترجمة التي كانت عماد

مناشطها، ألحقت بها مكتبة عامة ومرصد فلك. وتبوأت المدرسة النظامية التي أسسها نظام الملك الوزير السلجوقي عام 65-1067 مكانة رفيعة في سجل "التعليم العالي"، بل صارت نموذجاً احتذته مؤسسات التعليم المتقدمة. وكان محور نشاط تلك المدرسة مذهب الإمام الشافعي وعقيدة الأشعري في التوحيد. وكانت هذه المدارس العالية كثيراً ما تستقطب جهود كبار العلماء مثل ما فعلت المدرسة النظامية مع العالم الجليل، رائد الفكر الصوفي، ومؤلف كتاب **إحياء علوم الدين**، الإمام أبي حامد الغزالي عندما استضافته أستاذاً لأربع سنوات.

وحقيقة الأمر أن التواصل العلمي بين مراكز العلم المختلفة كان مستمراً، إذ كانت وحدة العقيدة والمناخ الروحي تنطلقان من منبع واحد وهو القرآن الكريم. وكانت أساليب الدرس ووسائل التعليم في كل المراحل الدراسية تتفرع من مصدر واحد هو القرآن الكريم، عبر مجرى واحد هو اللغة العربية. ونتيجة توحُد المناهج أصبحت مراكز الدرس وحلقات العلم في مكة المكرمة والمدينة المنورة والبصرة والكوفة ودمشق وبغداد والقاهرة والقيروان والقرويين والزيتونة وقرطبة متطابقة في مناشطها. ولم تكن الأجزاء المسلمة من أفريقيا بمعزل عما يدور في مراكز العلم المركزية، وكان الحماس الديني وضرورة المواكبة والاطلاع على ما استجد من معارف تدفعان العلماء والطلاب للسفر والهجرة لينهلوا من مراكز الإشعاع الديني القديمة. وكان طلب العلم رغم ما يكتنفه من مشاق السفر ميسوراً بصحبة قوافل الحج وعبر طرق قوافل التجارة طويلة المدى، التي تربط الدولة بالأطراف بما فيها أفريقيا. وكان الانتقال من بلد لآخر يتم دون حجر أو قيد، وكما أن الترحال في طلب العلم عمل محمود، وقد حث عليه الحديث الشريف " اطلبوا العلم ولو في الصين ".

في العهود الإسلامية الأولى، وفي مراحل الحفظ واستظهار المعارف، وندرة الكتب كان نشر العلم شفاهة من أهم السبل، ويتمثل ذلك في جهد الدعاة والوعاظ وعامة المسلمين لنقل تعاليم الإسلام إلى المناطق التي تغلب الأمية على سكانها. وكان مما يحمله الطالب عند إكمال دراسته إجازة. والإجازة عبارة عن تقرير يعطيه الأستاذ للدارس عند انتهاء فترة التعليم (طالت أم قصرت) يبيّن فيها الموضوع الذي درس، ومستوى أدائه. وهي شهادة وتزكية من الأستاذ توضح أن الدارس مؤهل ليباشر مهمة التعليم مما درسه الطالب. وقد تكون المادة المجازة محفوظة عن ظهر قلب أو على هيئة كتاب مخطوط. إلا أن الأسلوب الشفاهي قد تضاءل دوره بتطور صناعة الكتب وانتشار الكتاب في غمرة النهضة العلمية خاصة بعد استيراد الورق الصيني وتوطين صناعته في بعض المدن الإسلامية خلال القرن التاسع. ومن خصائص الورق الصيني أنه أخف وزناً من أنواع الورق المستعمل في الماضي كالرق والبردي والجلد، وأنه أكثر ملائمة للكتابة ونتيجة ذلك زاد استعماله في المراسلات الرسمية وصناعة الكتب ومن ثم سهل نقلها لأماكن قاصية.

وواكب هذه النقلة النوعية في صناعة الكتب، ازدهار خزانات الكتب ومكتبات القراءة، وفي رحاب هذه المكتبات تجري مناقشة القضايا العلمية وتقام مناظرات. وكانت مكتبات بيع الكتب بمثابة وكالات تجارية وتعليمية. وذكر اليعقوبي أن بغداد كانت تفخر، في نحو عام 891، بوجود أكثر من مائة بائع للكتب في شارع واحد، ومع أن بعض المتاجر كانت صغيرة الحجم، على هيئة أكشاك فكانت تلك المتاجر بمثابة مراكز أدبية يؤمها المثقفون والخطاطون والنسّاخ والورّاقون، ومن هذه الفئات نبغ بعض الكُتّاب ذوو الشأن. ونال الكتاب بهيئة جديدة بعداً أوسع للرواج ومنحته دفعة انطلاق أقوى في حركة التواصل الثقافي. وكان الكتاب أهم مواد التجارة طويلة

المدى بل وأكثرها رواجاً وكثيراً ما عاد طلاب العلم المغتربون محملين برحال من الكتب.

وباختصار فإن العدد الوافر من العلماء الذين كانوا ينتشرون في مراكز العالم والكم الهائل من الكتب والرسائل والمعاجم والموسوعات التي حبّروها في كافة مدن الخلافة وفي الأندلس كانت جاذبة للطلاب وللعلماء والطلاب الأفارقة لينهلوا من فيضها. ولعل خير ما يصف هذه الحقبة ما كتبه المؤرخان البريطانيان رولاند أولفر وجون فيج أنه: "من نحو عام 800 حتى عام 1300 ليس هناك ما يفوق الحضارة الإسلامية في تميزها، وذلك بسبب علو فكرها وعلمها وفنها وحكمها ولا غرابة أن نعت البعض هذه الفترة بالعصر الإسلامي".

ازدهار الكتاب العربي في أفريقيا:

الكتاب العربي في غربي بلاد السودان

عند مطلع القرن السادس عشر أصبح الإسلام ظاهرة مألوفة في الفضاء الأفريقي. وفيه ضمت مساحات كبيرة من أفريقيا السوداء للتيار الرئيس للتاريخ العالمي، وكان أن شاركت شعوب أفريقية متعددة في مسار التجارة العالمية، ومن ثم توسعت فرص التواصل الثقافي بينها وبين العالم الإسلامي، وهذا ما نوّهنا به.

وعندما قوي النفوذ الإسلامي في بلاد السودان الغربية أنشئت حكومات إسلامية قامت على تعاليم الشريعة، وتبع ذلك تأسيس مراكز علمية تشع منها تعاليم الثقافة العربية الإسلامية مثل جنى وتمبكتو. ويتمثل دور هذه المراكز وعظمتها فيما خرّجته من علماء وما أنتجته من كتب. ولعل خير مثال لذلك الفقيه أحمد بابا الذي اقترن نشاطه العلمي بتمبكتو لفترة طويلة.

ارتبطت نشأة تمبكتو الأولى في القرن الثاني عشر بالطوارق واكتمل تأسيسها في عهد المرابطين وازدهرت في عهد ملوك سنغاي؛ وقد اقترن تاريخ المدينة

بالمسلمين. ويجمل المؤرخ عبد الرحمن السعدي تطورها بأنها أنشئت في أواخر القرن الخامس للهجرة "ما دنستها عبادة الأوثان ولا سجد على أديمها قط لغير الرحمن وهي مأوى العلماء والعابدين ومألف الأولياء الزاهدين (...) حتى صارت سوقاً للتجارة".

واكب هذا النشاط التجاري والانفتاح على العالم الخارجي ازدهار علمي رفيع تمثل في هجرة العلماء وإقبال الطلاب عليها. وفي رواج الكتب العربية والمخطوطات. وازدادت تمبكتو عزة ومنعة عند سيطرة مملكة سنغاي عليها، وأصبحت مركز إشعاع علمي إسلامي رفيع القدر حتى بذّت سائر مدن بلاد السودان.

من نتائج المد الإسلامي العربي الذي عمّ أجزاء من بلاد السودان، وكنا قد أسلفنا بعض الحديث عنه، ظهور مجموعة من علماء السودان الذين تبحروا في المعارف الإسلامية وتمثلوها تمثلاً شمولياً، إذ نهلوا من علوم الشريعة واللغة العربية والتصوف والتاريخ حتى صاروا مثل علماء المشرق. ومن هؤلاء العلماء الأفذاذ، العلامة المحقق المدقق، أبو العباس أحمد بن عمر بن آقيت الصنهاجي التمبكتي المالكي (1556–1627)، كما برز أحمد بابا في علوم الفقه والتاريخ بعامة والسير بخاصة حتى صار مرآة عصره دون سواه، مع أن كل من سبقوه من رصفائه كانوا علماء أجلة.

بدأ أحمد بابا تعليمه في تمبكتو على عدد من علمائها ومنهم ذووه من آل آقيت، فعلى والده درس علم الحديث والمنطق وأجزاء من الفقه على مذهب الإمام مالك، فقرأ **الموطأ** للإمام مالك، **والرسالة** لابن أبي زيد القيرواني. أما أستاذه الأول وشيخه الفعلي، الذي انتفع به وبكتبه انتفاعاً كبيراً فهو محمّد بن محمود بن أبي بكر الونكري التمبكتي الشهير بـ"بَغِيعُ". وقد لازمه لعشر سنوات قرأ فيها عليه نحو خمسة وعشرين كتاباً تعنى باللغة العربية والبيان والمنطق والفقه والأصول وعلوم

التفسير. ودرس عليه **مختصر خليل بن إسحاق** ، و**الموطأ** ، **والمدونة** لسحنون قراءة تفهم، وقرأ **صحيحي** البخاري ومسلم ، و**صغرى السنوسي** في التوحيد، **ورجز المغيلي** في المنطق ، **والخزرجية** في العروض، **وحكم ابن عطاء الله السكندري** في التصوف وغيرها. وقد أجازه جميع ما يجوز له وعنه.

وكان ملوك الأسكين قد اهتموا بالمؤسسات التعليمية فأغدقوا الرواتب على العلماء من المشارقة والمغاربة والسودان، واهتموا بتشييد المساجد ودور العلم وحرص المواطنون على اقتناء الكتب، وكان لهذا كله أثر كبير في تهيئة مناخ علمي رفيع. وبفضل هذه الجهود صارت تمبكتو بمثابة مدينة أو مؤسسة تعليمية كبرى على نسق المعاهد الإسلامية الكبرى مثل جامعة الأزهر الشريف وجامع القرويين والزيتونة، وكان جامع سونكري الذي يتوسط المدينة بمثابة جامعة، وهو مركز الإشعاع العلمي الأول في غرب إفريقيا. وكانت الدراسة فيه على النسق الشرقي التقليدي ذي التوجه الشمولي.

بدأ أحمد بابا حياته معلماً في تمبكتو، ثم باحثاً واستفاد من مكتبات آل محمد آقيت الغنية، وقيل عنه إنه أقل عشيرته كتباً. وروي أن ما نهب من مكتبته في محنة الغزو السعدي لتمبكتو عام 1591 بلغ ألفاً وستمائة مجلد.

وبسبب ذلك الغزو نُفي أحمد بابا إلى مراكش عاصمة السعديين لمدة أربعة عشر عاماً انصرف فيها للتدريس والتأليف. وبجامع الشرفاء بمراكش درس **مختصر خليل** دراسة بحث وتحقيق، ونقل وتوجيه، وكذلك **ألفية ابن مالك وتحفة الحكام** لابن عاصم **وجمع الجوامع للسبكي، وحكم ابن عطاء الله والجامع الصغير** للجلال السيوطي **والصحيحين** للبخاري ومسلم. وتعكس موسوعية معرفته وفرة إنتاجه، إذ ذكر المؤلف أنها تزيد عن أربعين عنواناً. وتقول **دائرة المعارف الإسلامية** أن مؤلفاته بلغت الخمسين؛ عالج فيها موضوعات جمّة كالفقه، اللغة العربية، التاريخ والتراجم.

إلا إن معظم مؤلفاته هذه لم تخرج من دائرة التصنيف والشرح والإفتاء، وهو النمط الغالب على مؤلفاته في العربية وعلوم الشريعة، وحافظ في كل كتبه على نهج التأليف الإسلامي التقليدي.

وقد كانت أعظم مساهماته في التاريخ والسير والطبقات على وجه الخصوص؛ ويمكن تقسيم مؤلفاته إلى مجموعات ثلاث، تعنى أولاها بالفقه المالكي مثل **فتح الرزاق في مسألة الشك في الطلاق**، و**اللمع لحكم تدخين التبغ**، **الكشف والبيان لأصناف مجلوب السودان**، وهو عبارة عن فتوى صارت ذات مضمون تاريخي. وعنوان الرسالة **الكشف والبيان لأصناف مجلوب السودان**، أو **معراج الصعود إلى نيل حكم مجلوب السودان**، وقد كتبها المؤلف رداً على استفسار حول حكم استرقاق الشعوب السودانية المسلمة وكان ذلك تأسيساً على المذهب المالكي. وقد اعتمد عليها الشيخ عثمان بن فودي، زعيم حركة الجهاد في شمال نيجريا (ت. 1817) في **كتابه بيان وجوب الهجرة**. وقد وجد هذا الكتاب، عناية علمية فائقة من المؤرخَين فاطمة الحراق وجون هانويك.

والمجموعة الثانية في اللغة العربية وتشمل تعليقاً عليها على أوائل **الألفية**، بعنوان **غاية الإجادة في مساواة الفاعل للمبتدأ في شرط الإفادة**.

وتندرج تحت المجموعة الثالثة كتب التاريخ والسير، مثل **دور السلوك بذكر الحلفاء وأفاضل الملوك**، **وكفاية المحتاج لمن ليس في الديباج**. ومن أعظم مساهمات أحمد بابا العلمية كتابه **نيل الابتهاج بتطريز الديباج** في سير علماء المالكية، وقد أرّخ فيه لنحو ثمانمائة وأربعين عالماً جّلهم من فقهاء المالكية والمتصوفة، وقد اعتمد في إعداده على الرصيد المكتبي المحفوظ في تمبكتو ومراكش وانتقى مادته من نحو ثلاثين مصدراً، فصل عناوينها بدقة. نورد منها على سبيل المثال **الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب** لابن فرحون، و**تاريخ ابن**

خلدون وتاريخ النحاة وتاريخ مصر وكلاهما للجلال السيوطي، و**كتاب التشوف في رجال التصوف للتادلي**. وسار أحمد بابا في تأليفه على نهج كتاب السير والتراجم، وفق معايير متوازنة تستند على الرواية والإسناد. وعلم السير والتراجم من الموضوعات التي وجدت عناية من الكُتَّاب العرب منذ العهد الأموي. وكان قرار أحمد بابا أن يزيد ويفصل فيها عما ورد في **ديباج ابن فرحون**.

وقد فاق أحمد بابا معاصريه علماً وبحثاً وتأليفاً حتى شهد له علماء المغرب والسودان بسعة العلم وغزارة الإنتاج دون أن يخرج كثيراً عن النسق التقليدي في الكتابة، ولكن في منحى تجديدي في تمبكتو، مركز الإشعاع. ففي عهده بدأت تمبكتو مرحلة التوجه التأصيلي والإنتاج المستقل في دائرة التاريخ، وكان ممن سار على النهج الجديد وترسم خطى أحمد بابا في كتابة التاريخ القاضي محمود كعتي وعبد الرحمن السعدي وكلاهما ارتبط اسمه بتمبكتو؛ وتؤسس مؤلفاتهما في التاريخ ما يمكن أن يعرف بـ"مدرسة التاريخ السودانية".

ولد العالم القاضي محمود كعتي بن الحاج محمود، السوننكي أصلاً التمبكتي موطناً، في عهد أسكيا الحاج محمود، سلطان سنغاي (1493– 1528) ومات عام 1593؛ وقد فصّل في كتابه **تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس ووقائع التكرور وعظائم الأمور وتفريع أنساب العبيد** لمواضيع عدة منها تاريخ مملكه سنغاي وبلاط الأسكيا، وتاريخ بعض دول غرب إفريقيا. وقد اعتمد في تأليفه على مصادر خطية وروايات شفوية.

أكمل السعدي كتابه **تاريخ السودان** في نحو عام 1653 وخص به تاريخ سنغاي ومالي، وتاريخ الطوارق وجني وتمبكتو، وينم جهده في الكتابة عن نهج مورخي المشرق. وفوق المصادر الخطية اعتمد السعدي على ما سمع ورأى خاصة وهو شديد الصلة بالبلاط في عهد الأسكيين.

ومع أن كتابيِّ كعتي والسعدي يوسعان دائرة التاريخ للجزء الغربي من بلاد السودان إلا أنهما لا يخلوان من بعض مظاهر القصور التي ورثا نهجها عن بعض كتب التاريخ العربي كنقل الأساطير وعدم التدقيق في سرد الحقائق.

أدى انتشار الكتاب العربي في بلاد السودان، وارتباط مواطنيه بتراث الحرف العربي، أن اتخذوا من الأخير رمزاً لكتابة لغاتهم، مثل ما فعل السواحليون في شرقي أفريقيا. وقدر بعض الباحثين أن عدد اللغات الأفريقية التي كتبت بالخط العربي يناهز الثلاثين لغة، على رأسها كبريات اللغات التي يتكلم بها عشرات الملايين اليوم، وهي لغات الفلاني، ماندينقا، سوننكي، ولوف، تمى، السواحيلي والصومالية. كما استعارت كثير من هذه اللغات ألفاظاً ومصطلحات عربية. والكتابة بالحرف العربي ليست صعبة على من تعلم كتابة سور من المصحف وحفظ القرآن.

ويلاحظ أنه رغم أن أقاليم بلاد السودان عموماً لم تكن خاضعة في يوم من الأيام للخلافة العباسية وما تلاها من حكومات في أي مرحلة من مراحل تطورها، إلا أن الارتباط الفكري ظل قوياً ومتجدداً عن طريق التواصل التجاري، وعن طريق قوافل الحجيج، ورحلات العلماء، وازداد هذا الارتباط منذ أن استولى مسلمو بلاد السودان على زمام الأمر سياسياً. وكانت نتيجة ذلك ظهور عدد من العلماء المرموقين اشتهر صيتهم على نطاق العالم الإسلامي بما ألفوا من كتب، وبلغت جهودهم الفكرية ذروتها بحركات الإصلاح والجهاد التي اجتاحت المنطقة خلال القرن التاسع عشر، وأدت إلى قيام كيانات إسلامية جديدة مثل خلافة سوكتو وإمامة ماسنه ودولة التكرور. وقد هاجر بعض هؤلاء العلماء إلى الحجاز وتركوا أثراً علمياً عميقاً.

الكتاب العربي في منطقة نيجيريا:

ترجع بواكير انتشار الإسلام في منطقة نيجيريا إلى القرن الخامس عشر، كما نوّهنا، إلا أن الفضل في انتشار الثقافة العربية الإسلامية بصورة عميقة يرجع إلى الشيخ عثمان بن فودي (1756– 1817) رائد حركة الإصلاح الإسلامي في غرب أفريقيا. ففي نهاية القرن الخامس عشر استقطبت حاضرة برنو عدداً من العلماء الذين أسسوا مركزاً علمياً عماده الدراسة والتأليف في الفقه والتوحيد واللغة العربية كما تبيّن كتابات أحمد بن فُرطوُه، في نحو عام 1575. وشهدت نفس المنطقة ازدهار مدرسة للتصوف، وأخرى لتحسين الخط. وفي نهاية القرن الخامس عشر قدم علماء من تمبكتو وولات إلى كانو وكاتسينا في شمال نيجيريا، ومع استمرار هجرة العلماء إلى المنطقتين، حتى بداية حركة الإصلاح، فإن أولئك العلماء قد داوموا على التأليف في موضوعات الفقه والتوحيد واللغة. وقد شذ عن ذلك محمّد بن محمّد الفلاني الكاتسيني (ت. 1742) الذي اشتهر بدراسة علم العدادة (دراسة معاني الأعداد السحرية والتنجيم) وعلم الطلاسم (تعاويذ يزعم أنها تدفع الشر وتجلب الحظ السعيد) وما زالت كتبه رائجة في العالم العربي.

واكبت دعوة الشيخ عثمان الإصلاحية ثورة حقيقية في الكتابة العربية الإسلامية بدءاً من نهاية القرن الثامن عشر وحتى منتصف القرن التاسع عشر. واقترنت هذه الثورة الفكرية بقادة الثورة الإصلاحية: الشيخ عثمان وأخوه عبد الله بن محمّد فودي (ت. 1827) وابنه محمّد بلو (ت. 1837) فقد ألفوا مجتمعين أكثر من ثلاثمائة عمل، نثراً وشعراً، وكتبوا العشرات من قصائد المناسبات. كما كتب الشيخ عثمان شعراً باللغة الفلانية (الفُلْفُلْدي). وكانت كتب "ثالوث الإصلاح" هذا، الذي أسس خلافة سكوتو (1812–1903)، في الفقه والتوحيد والتصوف التفسير والحديث واللغة والأدب والوعظ والتاريخ والطب.

ومن مؤلفات الشيخ عثمان **أسانيد الشيخ عثمان** (أو **كتاب الآسانيد**)، **السلاسل الذهبية للسادة الصوفية، السلاسل القادرية، أصول الدين، علوم المعاملة، بيان وجوب الهجرة، بيان البدع الشيطانية، إحياء السنة**، ومن مؤلفات عبد الله أخيه **ضياء التأويل، المفتاح للتفسير** (من علوم القرآن) **البحر المحيط والحصن الحصين** (في النحو والصرف)، **ضياء الحكام، ضياء السياسات** (حكم) **الفرائض الجليلة** (فقه) **سبيل النجاة، ومعطيات الزاد إلى الميعاد وفتح اللطيف الوافي في علم العروض والقوافي**. ولمحمّد بلّو **إنفاق الميسور** (تأسيس الدول ومعجم)، **الغيث الوابل في سيرة الإمام العادل، مفتاح السداد، النصيحة الوضيئة، جلاء الصميم ، جلاء الصدور**.

ولم تكن ثورة التأليف وقفاً على أسرة الشيخ عثمان وأحفاده، بل شملت آخرين في كل المنطقة، وكتب قليل منهم عن علم المواقيت؛ بينما كتب الطاهر بن إبراهيم الفلاتي البرناوي (نحو 1745)، **أمراض المعدة**، ووصف محمّد بلو نبات "السنة مكة" علاجاً لها، وكتب أيضاً **مصوغ اللجين** عن مرض العيون؛ وأعد رسالتين أخريين عن **الطب النبوي**.

وكان المديح، مديح الرسول صلى الله عليه وسلم وتمجيده، ونشر سيرته العطرة من المواضيع التي وجدت رواجاً عند مسلمي المنطقة، وألفوا القصائد فيه على منوال **البردة** للبوصيري، و**بانت سعاد** لكعب بن زهير.

يتضح مما أوجزنا ذكره من إنتاج الشيخ عثمان وأخيه وابنه وغيرهم، أن علماء منطقة نيجيريا قد دعموا مسيرة الكتاب العربي، ولم يقتصر جهدهم على شرح الغامض والمشكل في علوم الدين، بل أضافوا للثقافة العربية الإسلامية أبعاداً جديدة، خاصة في طريقة حفظ بعض العلوم بتحويل مادتها من النثر إلى المنظوم لغة،

ولعل ألفية الشيخ عبد الله بن فودي **اللؤلؤ المصون** التي قام فيها بنظم المسائل الدينية شعراً، خير دليل على ذلك.

الكتاب العربي في سودان وادي النيل:

كان قيام مملكة العبدالّلاب التي أسسها تحالف من القبائل العربية المهاجرة في منتصف القرن الخامس عشر بمثابة إعلان عن غلبة الثقافة العربية الإسلامية على سكان وادي النيل الأوسط، وكان الإسلام القوة الدافعة للمد العربي في تلك المنطقة بشراً وثقافة. ولكن انتشار الإسلام لم يتجاوز مراحله الأولى؛ إذ لم يشتهر في تلك البلاد "مدرسة علم ولا قرآن" على حد تعبير محمّد النور بن ضيف الله، مؤلف **كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان**. وكان قد فرغ من تأليفه في مطلع القرن التاسع عشر، وهو مصدر أساسي لتاريخ التعليم والثقافة العربية الإسلامية إبَّان عهد سلطنة الفونج الإسلامية (1504- 1821). وعند مطلع القرن السادس عشر أدخل عالم سوداني ممن درسوا في مصر كتابي **المختصر** لخليل بن إسحاق، و**الرسالة** لابن أبي زيد القيرواني، وهما من أهم كتب الفقه المالكي الذي كان قد انتشر بين السودانيين. وبعد بضعة عقود قدم الشيخ تاج الدين البهاري من بغداد ونشر طريقة الشيخ عبد القادر الجيلاني، ومن المغرب قدم التلمساني المغربي الذي أدخل علوم القرآن من توحيد وتجويد وقراءات. ثم تواترت هجرات العلماء بتشجيع من السلاطين، وازدادت رحلات الطلاب للحجاز ومصر وكانوا يعودون محملين بالكتب. ويلاحظ أن المعلمين والعلماء في سودان وادي النيل قد جمعوا بين علمي الظاهر والباطن، وصار من الصعب أن نفرق في شيء من الدقة بين وظيفة الفقيه العالم والشيخ الصوفي.

من الكتب المتداولة في سودان وادي النيل، **المدوّنة**، وهي عبارة عن ست وثلاثين ألف مسألة على مذهب الإمام مالك جمعها أسد بن الفرات النيسابوري

ورتبها سحنون بن عبد السلام التنوخي، ومنها **شرح المدونة**، لابن عمران موسى الغفجومي (ت. 430 هـ)، وكذلك **مختصر خليل**، لخليل بن إسحاق (ت. 1374) وهو من كبار علماء المذهب المالكي بمصر، اعتمد فيه على شرح **جامع الأمهات** لابن الحاجب، وهو من أهم الكتب المتداولة في سلطنتي الفونج ودارفور؛ ومنها **الرسالة**، لابن أبي زيد القيرواني، وكان من أشهر أئمة المالكية في زمانه، وهو كتاب مشهور مثل **المختصر**، عمّت فائدته سائر الأقطار التي تدين بالمذهب المالكي. ومن الشروح التي دخلت السودان **فتح الجليل على مختصر خليل** لمحمّد بن إبراهيم التتائي، و**حاشية على شرح الرسالة** لعلي بن زين العابدين الأجهوري، **وحاشية على مختصر خليل** لأبي عبد الله محمّد الخراشي. ونسبة لقلة الكتب المتداولة في السلطنة وغلاء الورق، وبما أن **المختصر والرسالة** من كتب المتون فقد كثر ما ألفه العلماء المحليون من شروح وحواشٍ حولهما، وقد وقفت على نحو اثنين وثلاثين شرحاً وحاشية.

ومن كتب المذهب الشافعي، وهو مذهب قلة بين المواطنين **منهاج الطالبين** لأبي زكريا محيِّ الدين بن شرف النووي، ومن كتبه التي راجت في سودان وادي النيل **رياض الصالحين وشرح صحيح مسلم**. وكان النووي أستاذاً للشيخ محمّد بن على بن قرم المصري الذي وفد إلى السودان وأدخل مذهب الشافعي وعلوم القرآن.

ومن كتب علوم القرآن **متن الخزاري**، وأصله من **كتاب المقنع في رسم القرآن** الذي ألفه أبو عمرو الداني وزاد عليه الخراز وبه اشتهرت، ومنها **متن الجزرية** لمؤلفها شمس الدين أبو الخير، ووضع السودانيون سنة شروح لـ **الجزرية** و**الخرازي**. وألّف عبد الرحمن بن الأغبش ثلاثة كتب في أحكام القرآن.

وقد تمحورت دراسة علم التوحيد حول متن وثلاث رسائل في العقيدة الإسلامية ألفها أبو عبد الله محمّد بن يوسف السنوسي المغربي وهي **كبرى السنوسية**،

و**وسطى السنوسية** وتسمى **بالمرشد**، و**صغرى السنوسية**، المسماة **أم البراهين**. ووضع علماء سودانيون حولها نحو ثلاثين كتاباً وشرحاً وحاشية.

ومن كتب الحديث عُرِفَ **الجامع الكبير في الحديث** و**الجامع الصغير** لجلال الدين السيوطي، و**صحيح البخاري** و**صحيح مسلم**، ومن مؤلفات السودانيين في هذا المجال، **الكلام المختار من أحاديث المختار**.

وعُرف السودانيون من كتب التفسير **التفسير الكبير** للإمام فخر الدين الرازي، و**تفسير الجلالين**، و**تفسير الزمخشري** و**تفسير القرآن** لأبي العربي.

ووجدت علوم العربية اهتماماً في حلقات الدرس ومن أبرز كتبها **متن الآجرومية**، لابن آجروم، **شرح متن الآجرومية** لحسن الكفراوي، **وألفية ابن مالك**، وكتب بعض العلماء شروحاً لها، ومن دواوين الشعر عرف **ديوان حسان بن ثابت**، و **ديوان كعب بن زهير**، و **ديوان ابن الفارض** عبد الغني النابلسي.

ووجد التصوف اهتماماً كبيراً، وأفرد بعضهم مرحلة دراسية خاصة به وتذخر **طبقات ابن ضيف الله** بصورة نابضة عن حياة المتصوفة وتعاليمهم خاصة الجانب العملي، لا النظري أو الفلسفي. ومن الكتب التي نالت اهتماماً **الطبقات الكبرى المسماة لواقح الأنوار من طبقات الأخبار** وقد جاء ذكره في **طبقات ابن ضيف الله** ثلاث عشرة مرة؛ وكتاب **لطائف السنن والأخلاق في بيان التحدث بنعمة الله على الإطلاق**، والكتابان لعبد الوهاب الشعراني، ومن كتب الصوفية **منجيات ابن عطاء الله**، لتاج الدين أحمد بن عطاء الله السكندري، **ودلائل الخيرات وشوارف الأنوار في الصلاة على النبي المختار** لمحمّد بن عبد الله الجزولي، منشيء الطريقة الجزولية وهو من أكثر كتب الأوراد ذيوعاً في الديار السودانية.

ومن مؤلفات الوطنيين في التصوف، **كتاب ترشيد المريدين في علم التصوف** للعالم عبد الرحمن بن جابر، وهو أول مبادرة سودانية في هذا العلم، **وصفة الفقير**

للشيخ محمّد بن هدوي، والكتاب مفقود، وقد نقل عنه ابن ضيف الله: و"من أخلاقهم أنهم لم يصافحوا امرأة أجنبية بيدهم". و**آداب الذكر في طريق أهل الله والسير به ساهل** تأليف الشيخ إسماعيل (صاحب الربابة) بن الشيخ مكي الدقلاش، عاش في القرن الثاني عشر من الهجرة النبوية،و ذكر ابن ضيف الله أنه من الملامتية، وهم طائفة من المتصوفة يفعلون ظاهر الإثم ويبطنون الخير والصلاح، ووصف بالمجذوب، وصفة الجذب عائدة إلى شطحاته وغرائب أفعاله. إلا أن كتابه يثبت أن إدراكه لعلم التصوف جيّد، وقد كتب بإحكام، وشملت أبواب الكتاب مبادئ التصوف في شيء من التفصيل خاصة الجوانب التطبيقية؛ والكتاب من خير ما وضع بنهج تعليمي تربوي عوناً للتلميذ المريد، مما يدل على طول باع الشيخ في التصوف.

ويأتي كتاب **طبقات ابن ضيف الله** وهو من أقدم الكتب وأكثرها أصالة، وضعه المؤلف استجابة لدعوة من زملائه "ليؤرخ لهم ملك السودان وأن يذكر مناقب الأولياء فيه". وقد تأثر المؤلف بنهج من كتبوا في التاريخ والمناقب مثل عبد الغفار النيسابوري، والجلال السيوطي، وابن حجر العسقلاني، والشيخ أحمد المقري، والشعراني **(الطبقات الكبرى) (طبقات الشافعية)**، والسبكي. وقد ترجم فيه لمائتين وسبعين عالماً ووليا. والكتاب مصدر مهم لتاريخ سلطنة الفونج الإسلامية، ويعكس روح العصر خاصة الجوانب العلمية والثقافية والاجتماعية، إلا أن ما يرصده لا يخلو من بعض الترهات وبعض ما يمت للأساطير والشعوذة.

يبدو مما تقدم قلة ما أُلِف من كتب إذ ما قورن بالإنتاج الثر الذي واكب النهضة العلمية التي ازدهرت غربي بلاد السودان. ولعل مرد ذلك أن المعلمين قد جمعوا بين الفقه والتصوف، وكان لتزاوج التيارين الفقهي والصوفي أثر كبير في تطور دور التعليم، فقد غلب الجانب التطبيقي على التصوف وازدادت قوافل "الفقرا" (أو الفكيا جمع فكي وهو اصطلاح سوداني يتكامل فيه دور الفقيه المعلم والفقير الصوفي)،

في تجوالها وغلب النهج الشفاهي المستند على الحفظ. ومع شيوع اللغة العربية واكتمال عملية الأسلمة فإن تفشي الأمية، في بلد تغلب فيه البداوة على سكانه، قلل من الاهتمام بالبحث العلمي والتأليف. ورغم ذلك فقد شهد العقدان الأولان من القرن التاسع عشر بداية ظهور طبقة حضرية أو شبه حضرية صاحبها ظهور وعي إسلامي عربي. مرده إلى حركات الإصلاح الإسلامية والبعث الصوفي التي اجتاحت بلاد العرب وغربي بلاد السودان، وتسربت هذه المؤثرات عن طريق الطلاب السودانيين الذين درسوا في الحجاز، وبواسطة العلماء الوافدين من غرب بلاد السودان عن طريق الحج.

تمثل الوعي الإسلامي العربي في ظهور عدد كبير من المؤلفات الصوفية التي أنتجها قادة الطرق الصوفية، خاصة السمانية والختمية والمجذوبية والإسماعيلية، وقد تأثرت هذه الطرق، عدا السمانية، بتعاليم العالم الصوفي المحدِّث السيد أحمد بن إدريس المغربي (1749–1837) في مكة المكرمة حيث تم اللقاء بين بعض مؤسسي هذه الطرق والسيد أحمد بن إدريس.

وخير ما يعكس إنتاج هذه الطرق، الذي تميز بالكثرة ومناقشته لبعض قضايا الفكر، أولاً: مؤلفات مؤسس الطريقة السمانية الشيخ أحمد الطيب ود البشير (1742–1824) التي تغلب عليها قضايا التصوف وأوراد الطريقة السمانية؛ وقد بلغ عددها نحو عشرين كتاباً ووروداً مثل **الصلوات الطيبية، حرز الأمان من صلوات الزمان، كتاب عن البسملة، مفتاح القلوب، والنفس الرحماني في الطور الإنساني،** وقد كتب على نهج **الحكمة العطائية** لابن عطاء الله السكندري. ثانياً: مؤلفات عبد المحمود بن نور الدائم بن أحمد الطيب (1845–1916) وهو ذو إنتاج كبير بلغ عدده خمساً وثمانين كتاباً، سجل منها البروفسير أوفاهي خمساً وخمسين كتاباً في فهرسه عن الأدب العربي في أفريقيا، منها: **أزاهير الرياض في مناقب العارف بالله**

الشيخ أحمد الطيب، الدرة الثمينة في أخبار رحلتنا إلى مكة المشرفة والمدينة. ويتسم سائر أفراد الأسرة الطيبية بغزارة العلم ووفرة الإنتاج ومنهم شعراء ذوو باع.

ومن صفوف الطريقة السمانية ظهر العالم المصلح التجديدي محمّد أحمد بن عبد الله المهدي (1840–1885)، وفي دعوته لبعث تعليم الإسلام، وهي دعوة تلتقي في نهجها الإصلاحي مع حركات الإصلاح التي ظهرت في القرن التاسع وغطت كل بلاد السودان بدءاً من السنغال حتى الصومال. والحق أن الثورة المهدية كانت منعطفاً خطيراً في تاريخ السودان الحديث، أقام المهدي بعدها نظاماً إسلامياً، أراد له أن يكون على نسق مجتمع الرسول وعهد الراشدين؛ فكان توجه المهدي سلفياً توحيدياً، ولعل هذا مما باعد بينه وبين النهج الصوفي. وقد اعتمد المهدي في بث دعوته، فوق الخطاب المباشر بالكلمة المكتوبة في شكل رسائل عرفت **بمنشورات الإمام المهدي**. وتحتوي الرسائل فوق الدعوة لنصرة تعاليم المهدي، على جوانب تشريعية وإدارية. وقد جمعها البروفسير محمّد إبراهيم أبو سليم في سفر ضخم بعنوان **الآثار الكاملة للإمام المهدي** في سبعة أجزاء.

خلاصة القول أن سودان وادي النيل قد تمثل الوعي العربي في التأليف وخير نموذج لما نقول **كتاب طبقات ابن ضيف الله**، الذي أشرنا إليه من قبل، وسلسلة كتب النسب التي تؤرخ للقبائل العربية، وهي ضرب من الكتابة ترجع بجذورها للسمرقندي، الذي ربما كان واضع أول كتاب منها في القرن السادس عشر. أما الاهتمام بالكتابة التاريخية فيتبدى في **مخطوطة كاتب الشونة** أو **تاريخ ملوك سنّار**، والكتاب يؤرخ لسلطنة الفونج الإسلامية (1504–1821)، والإدارة التركية المصرية في السودان (1821–1872) وهو من وضع أحمد بن الحاج أبو علي، ومن بعده لمسته أقلام أربعة أشخاص ممن عاشوا في كنف الإدارة التركية المصرية، وهم: إبراهيم عبد الدافع، الزبير ود ضوَّه، أحمد قنجال، والأمين الضرير. وقد اهتم الكُتّابُ

الأربعة بتنقيح ما ورد في المخطوطة الأولى وتهذيب لغتها ووضع إضافات جديدة لها، إذ امتدت مادة الكتاب حتى عام 1871.

الحرف العربي في ساحل أفريقيا الشرقي:

ذكرت في كلماتي عن انتشار السلام في ساحل أفريقيا الشرقي انتشار الثقافة السواحيلية، واتخاذها الحرف العربي لكتابة لغتها. وقد ظل الحرف العربي يتبوأ مكانة سامية دون منازع حتى مطلع القرن العشرين حيث شنت إدارة الحكم الاستعماري حملة مضايقة على كل ما هو مكتوب باللغة العربية أو اللغة السواحيلية، وأخذ المبشرون المسيحيون محاربة الحرف العربي فى حربهم ضد الإسلام. وفي أحد المؤتمرات الكنسية المنعقدة في برلين عام 1905، أفاد أحد القساوسة أن الإسلام ينتشر حيثما راجت اللغات المرتبطة به، ودعا إلى تحريم استعمال اللغة السواحيلية (والعربية) في المداولات الرسمية. وقد نجحت دعوته عندما فُرض الحرف اللاتيني مكان الحرف العربي.

في البدء كانت اللغة العربية هي الأكثر انتشاراً بين الفقهاء وفي كافة مجالات التثقيف الإسلامية، إذ كان التركيز على علوم القرآن كالتفسير والتوحيد والفقه في معاهد العلم المحلية. وكانت قلة من طلاب العلم تجد فرصة لطلب العلم في الخارج، حيث كانت وجهتهم مراكز الإشعاع العلمي في حضرموت ومكة والمدينة والقاهرة والبصرة ومسقط. ولندرة العلماء في تلك المنطقة من شرقي أفريقيا كان حكامها يشجعونهم على الهجرة إليها بإغداق الهبات عليهم. وعموماً كان جُلَّ ما كتب بالعربية يسير على النهج التقليدي الذي سار عليه مسلمو أفريقيا من شروحٍ وحواشٍ، وكتب تعد نظماً أحياناً.

أدى انتشار اللغة العربية بين المسلمين في مدن الساحل وجزره إلى مساهمتهم الفعّالة في نشر اللغة السواحيلية في ما وراءه وذلك بفضل الدور الكبير الذي لعبه

العرب المسلمون في الإدارة والتجارة. وعليه كان ما أنتج من مؤلفات يتراوح بين اللغتين في أول الأمر وتدريجياً نالت اللغة السواحيلية قصب السبق.

عرفت منطقة الساحل بعض الوثائق المخطوطة المتعلقة بالتراث التاريخي ومن بينها على سبيل المثال **مخطوطة كلوه** (أو **مخطوطة بيت كلوه**) التي عثر عليها البرتغاليون في عام 1505 عند توغلهم في تلك المنطقة. أضف إلى ذلك ما أُلِف من كتب دينية.

كانت السمة الغالبة على الأدب السواحيلي قبل القرن التاسع عشر هي الشعر الناشيء في بيئة إسلامية. وكان تداوله شفاهة، يغنى ويكتب. وخير نموذج لذلك الملحمة الحمزية، ومثلها قصائد المديح– تندي Tende التي تحكي سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، والمغازي، وقد نُظم كثير منها بدافع من العواطف الإسلامية الجياشة.

خاتمة:

ولعل خير ما أختم به هذه الورقة سيرة الشيخ صالح الفلاني العمري (1752–1802)، التي نجد فيها الصلة التي تربط بين العلماء الأفارقة ومراكز الإشعاع العلمي في العالم العربي وتبيّن بجلاء دور الكتاب العربي في التواصل مع أفريقيا.

ولد الشيخ صالح في فوتا قالون، ثم شد الرحال، طلباً للعلم، إلى موريتانيا، وتمبكتو ، وأقام في تونس والقاهرة، وانتهى به المطاف بالمدينة المنورة. ولما حطّ الرحال بالمدينة المنورة لم يتجاوز عمره الحادية والعشرين، وهناك نهل من علماء الحجاز في علوم الحديث والسيرة والتصوف والعروض والمنطق، ثم تفرغ للتدريس والتأليف. وركز الشيخ صالح على توسيع معرفته بالحديث في الحصول على سلاسل متقدمة من الرواة للأعمال الرئيسة، وهو ما يؤدي للإسناد الأعلى. ثم وضع سجلاً (ثبتاً) بالأعمال التي رويت له بالإسناد وبالسلاسل. وقد بيّن جون هانويك

أنهما **الثبت الصغير**، و**الثبت الكبير** وعرف الأول بعنوان **قطف الثمر** و**الثاني بالثمر اليانع**. وله مؤلفات أخرى تتبدى منها ذروة آرائه المناهضة للمذهبية. ورغم تأثر الشيخ صالح بتعاليم الإمام محمّد بن عبد الوهاب فإنه لم يشاركه في مناهضته الشديدة للصوفية. وكان لآراء الشيخ صالح صداها وأثرها في حركة الإصلاح التي عمّت القارة الأفريقية في القرن التاسع عشر.

وخير ما يدل على مكانة الشيخ صالح العلمية أنه أحد اثنين من علماء القرن الثاني عشر الهجري [الثاني هو اللغوي، المؤرخ، الفقيه مرتضى الزبيدي (ت. 1791)] اللذين صنفهما العالم الهندي محمّد أشرف الصديقي العظيمياوي ضمن قائمة المجددين للإسلام عقيدة وممارسة على رأس المائة الثالثة عشر، وسبب ترشيحه لتلك المكانة الرفيعة يعود لمواقفه المناهضة للمذهبية وللأولية (أو الأسبقية) التي أكدها الحديث الشريف في إقرار الشريعة. وبذلك يمكن وضعه كأحد الرواد المفكرين في حركة التجديد الإسلامي. وهو من أبرز الأمثلة المنتقاة من مراكز العلم في العالم العربي وأفريقيا. ويبيّن هذا النموذج، رغم اختصارنا الحديث عنه، مدى التواصل الفكري الذي ربط بين المنطقتين عبر العلماء والكتاب العربي ناقل الثقافة الإسلامية العربية.

المصادر والمراجع:

- **القرآن الكريم**
- إبراهيم، عبد الله على، "إسلام السودان وعروبته، بمناسبة مرور أربعين عاماً على صدور **كتاب العرب والسودان**"، يوسف فضل حسن أدنبره، ١٩٦٧، في **المؤتمر الدولي، الإسلام في أفريقيا**، دار جامعة أفريقيا للنشر الخرطوم، ٢٠٠٧.
- ابن أبي زيد القيرواني، عبد الله، **الرسالة**، القاهرة، د ت.
- ابن ضيف الله، محمد النور **كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان**، تحقيق يوسف فضل حسن، طبعة خامسة، الخرطوم، ٢٠١٢،
- ابن فودي، عثمان، **بيان وجوب الهجرة**، تحقيق فتحي حسن المصري، الخرطوم، ١٩٧٧.
- أبوبكر، يوسف الخليفة، " الحرف العربي واللغات الأفريقية " في **العلاقة بين الثقافة العربية والثقافات الأفريقية**، تحرير، يوسف فضل حسن، تونس، ١٩٨٨.
- أبوسليم، محمد إبراهيم، **الآثار الكاملة للإمام المهدي**، جمع وتحقيق، ٧ أجزاء، الخرطوم، ١٩٩٠-١٩٩٤.
- أبو علي، أحمد الحاج، **مخطوطة كاتب الشونه في تاريخ السلطنة السنارية والإدارة المصرية**، تحقيق الشاطر بصيلي عبد الجليل، القاهرة، ١٩٦١.
- خليل، إسحاق، **مختصر خليل**، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، د ت.
- بابا، أحمد، **معراج الصعود، أجوبة أحمد بابا حول الاسترقاق**، تحقيق فاطمة الحراق وجون هانويك، الرباط، ٢٠٠٦.
- بابا، أحمد بن عمر، **كتاب ذيل الابتهاج بتطريز الديباج** على هامش الديباج المذهب في
- أعيان علماء المذهب، لإبراهيم بن فرحون العميري، القاهرة، ١٣٥١هـ .
- حسن، يوسف فضل، **انتشار الإسلام في أفريقيا**، الخرطوم، ١٩٧٩.

- _____، **حواش على متون علماء، مؤرخين ومفكرين في تاريخ أفريقيا والسودان**، الخرطوم، ٢٠٠٧.
- _____، **دراسات في تاريخ السودان وأفريقيا وبلاد العرب**، ج ٣، الخرطوم، ٢٠٠٨.
- _____، تحرير، **العلاقة بين الثقافة العربية والثقافات الأفريقية**، تونس، ١٩٨٨.
- دياب، أحمد إبراهيم (تحرير)، **العلماء الأفارقة ومساهماتهم في الحضارة العربية الإسلامية**، بغداد، ١٩٨٣.
- أليكسندر ستيبيتشفتش، **تاريخ الكتاب**، ج١، ترجمة محمد م. الأرناؤوط، سلسلة عالم المعرفة (١٦٩)، الكويت، يناير، ١٩٩٣. وقد خصص المؤلف قسماً خاصاً لتاريخ الكتاب عند العرب، ص ص ٢١٧– ٢٣٧.
- السعدي، عبد الرحمن بن عبد الله، **تاريخ السودان**، باريس، ١٩٦٤.
- سيد حامد حريز، **المؤثرات العربية في الثقافة السواحيلية في شرقي أفريقيا**، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٨.
- الطبري، محمّد بن جرير، **تاريخ الرسل والملوك** ...، ١٨٧٩ – ١٩٨٠.
- _____ ، **جامع البيان في تفسير القرآن**، ٣٠ جزءاً.
- _____ ، **مختصر تفسير القرآن الكريم**، القاهرة، ١٩٧٧.
- كعتي، محمود، **تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس ووقائع التكرور**، باريس، ١٩١٣.
- المباركفوري، صفي الدين المصباح المنير في تهذيب **ابن كثير**، الرياض، ٢٠٠٠، ١٤٢٨، ١٤٢٩.
- محمّد بلو بن عثمان بن فودي، **إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور**، تحقيق سي إي، ق ويتنق، لندن، ١٩٦٤.
- المسعودي، علي بن الحسين، **كتاب التنبيه والاشراف**، لايدن، ١٨٩٤.
- _____ ، مروج الذهب ومعادن الجوهر، بيروت، ١٩٧٣.

- النقر، عمر عبد الرازق، "دراسة في أسانيد الشيخ عثمان بن فودي" في **العلماء الأفارقة ومساهماتهم في الحضارة العربية الإسلامية**، تحرير أحمد إبراهيم دياب، بغداد، ١٩٨٣.
- هنويك، ج، او، "صالح الفلاني ٣-١٧٥٢-١٨٠٣، تعاليم عالم أفريقي غربي في المدينة"، **من العلماء الأفارقة ومساهماتهم في الحضارة العربية الإسلامية**، تحرير أحمد إبراهيم دياب، بغداد، ١٩٨٣.
- *Encyclopoedia of Islam*, 2nd ed. Leiden, 1954- 2004.
- Hitti, Philip K., *History* of *the Arabs frorn the Earlist Times to the Present*, London, 1958.
- Hunwick, John O., *Arabic Literature of Africa, The writings of Central Sudanic Africa*, Brill, Leiden, 1995.
- O'Fahey, R S. *Arabic Literature of Africa*, The writings of *Eastern Sudanic Africa to 1900*, Brill, Leiden, 1994.
- Oliver, R, Fage, J, *A Short History of Africa*, Penguin Books, London, 1973.